أعجوبة في مقبرة الزبير

جنان جاسم حلاوي

في «جامع السيف»، على دكّة أسمنتية، انهمك رجلان في غسل جثّة بدر شاكر السيّاب. كان الجامع شبه خالٍ: أربعة مصلّين، وباحة مكشوفة للمطر، مئذنة فارغة، وصبي أقرع يبدو أنّه يشتغل في الحدادة، ولج إلى المرافق، بعد أن تطلّع إلى المصلّين، ثم مسح مخاطه بكمّ دشداشته.

كان «علي» ينتظر مفجوعاً إنهاء غسل الميّت. تربّع على حصيرة في إحدى غرف الجامع، ثمّ خرج إلى الباحة مُتّكئاً على أحد الأعمدة، محتمياً بتاجه الحجري من الرذاذ. كلّ شيء كان مهيّأ: قماش الخام، والتابوت، ومسحوق الكافور، والصّابون. لاحت الأصوات تلك اللحظة مشحونةً بالوحشة واللامبالاة: تكتكات الرذاذ على البلاط، همْس المصلّين وهم يسلّمون على الملائكة، خرير الماء الجاري في بالوعةِ غرفة غَسْلِ الموتى، بربرة الشحّاذ المتكوّر في زاوية الجامع، وكأنّه محتمٍ بها من شخص يوشك أن يضربه.

وهناك بين مزوّقات الآيات وزخارفها، فوق ملاسة الفسيفساء، في أخاديد المرمر العتيق، للشرفة، لأرابسك الإيوان، مرّت بسحر خارق، ببطء زاحف، وئيد، خلل ثنايا الصمت الرّاكد، نهنهاتُ نحيبٍ خافتٍ، حارقٍ، لعلّه بكاء روح الميّت. روح منسيّة، عاريةٍ، معلّقة، على طرف هلال الجامع، وحيدة إلاّ من المها، وعذابها، يغسلها المطر، فتتطامن خافقةً في الفضاء، تدفعها الرّيح، فتفلتها من سنّ الهلال.. تتفلّت، تشفّ الغيوم، تتشبّث بها الريحُ، تطير، تتبعها الطيور، ولكنّها تغور في أعماق الزرقة الرماديّة مزهوّةً برعشة الانطلاق، وتغيب تاركة حزّ النهنهات المتفحّم بين حروف الآيات، وبقايا الدموع، تحت رذاذ كانون الكئيب.

أكمل الرجلان تحضير الميّت ودفعا التابوت إلى «عليّ»، وقبضا أجرهما.. قال «علي» للمصلّين الذين أنهوا صلاتهم:

– ساعدوني في رفع التابوت إلى السيّارة.. ساعدكم اللّه، وأجْركم عند ربّ العباد.

ساعدوه، ووضعوا التابوت على سلّة سيارة حمراء، مالبثت أن انطلقت إلى مقبرة الزبير مخلّفةً وراءها محلّةَ السيف، والبصرةَ العتيقة، وصبيَّ الحدادة، والعالمَ الخائف من المطر.. لوّح أعرابي للتابوت مسلّماً، ظنّه «علي» يهتف بكلمات قدسيّة: «إلى رحمة الله، مع السلامة»، أو كلمات مثلها.. ثم لا شيء سوى حشرجة السماء، وخرير ميازيب الشناشيل في «السيمر» و«السيف».

***

ماج النّاسُ حول سيّارة «فورد» تابعةٍ لمصلحة الموانئ، نزل منها رجالُ شرطةٍ، وموظفٌ راح ينظر بأُبّهةٍ وسطوة إلى النساء.. قالت امرأة عجوز: لماذا؟ خطية!

الشوارع تترجرج في المطر، والدموع تتضبّب في عيني العجوز.

– أين بدر؟

صمْت.....

ألقى رجالُ الشرطة الأثاثَ على الرصيف: كنبةً، كتباً، وسجّادة، وساعةً حائط، وملاعق، وبطّانيات، وستائر، وصرراً. صفّته «إقبال» بعناية تحت المطر، وأرادت أن تعترض على خشونتهم.

سألت امرأة شابة: ماذا يمكننا أن نفعل من أجلكم؟

إقبال: لا شيء.

التصق «غيلان» بأمّه...

الشرطي: لماذا لم تغادروا البيت، ألم ننذركم بفصل «بدر» من الدائرة؟

إقبال: وأين سنذهب؟

العجوز: لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.. تعالوا، عيني، عندي إلى أن يفرجها اللّه!

إقبال: شكراً، سأذهب إلى بيت أهلي.

أقفل الشرطيون البيتَ بسلسلة غليظة، وركبوا سيّارة الفورد.. كتب موظّفٌ ما شيئاً في ورقة رسميّة وأعطاها لإقبال.

– ما هذا؟

– نسخة من الأمر الرسمي بإخلاء البيت..

قرأ الموظّف حقداً في العيون.. قال مبرّئاً ذمّته:

– ما بيدنا شيء، نحن عبيد مأمورون.

ثم صعدوا إلى صدر السيّارة، ومضوا.. تفرّق النّاس. التبس الأمر على إقبال. نظر غيلان إلى مطر كانون.. مطر.. مطر.. مطر. متى يتوقّف يا إلهي المطر؟ ساحت قطرة ماء من خصلة نفرت على جبهة إقبال، تدحرجت إلى خدّها، فحنكها ثم سقطت على الاسفلت.. رنّت وتلاشت.

***

قرب صفصافة ذاهلة في مقبرة

الزبير، أنزل «عليّ» التابوتَ بمساعدة بعض المارّة، سأل عن حفّار القبور، قالوا: إنّه لا يعمل وقت المطر. سأل عن بيته، سكتوا. لاحظ بضعةَ توابيت مصفوفة بانتظار دفنها، سأل عن أمرها. قال صبيّ: إنها للمنسيين الذين لا أهل لهم، تدفنهم وزارة الأوقاف على نفقتها.

– حسن، ولكنّ الدفّان هو الذي صفّها.

– صحيح، ربّما وجدته في المرقد منتظراً توقّفَ المطر.

– أيّ مرقد؟

– ذاك.

أشار الصبي إلى مرقد الحسن البصري، وترحّم على الميت ومضى. خطا «عليّ» بضع خطوات صَوبَه وقرأ على عدّة شواخص مرمرية:

يا قاري كتابي ابكِ على شبابي
بالأمس كنتُ حيّاً واليوم تحت التراب
تحاشى أشواكَ العاقول، وحُفَرَ قبورٍ مخسوفة.. أين ذهب حفّارُ القبور؟ لماذا لا يكفُّ المطرُ عن نثيثه؟.. تساءل ثم فكّر: لو ينهض الموتى، ويبكون الميّت المتروك!! لا أحد يبكيه.. لا أحد بحاجة إليه.. لا أحد يهتم، يموت، يقوم، يضرب رأسه بالحائط، يذهب إلى الجحيم، لا أحد يهتم.. رأى القبّة تطير، فتبرز صلعةُ الحسن البصري لامعةً، وسحنته خاشعةً، ناظراً إلى الله عسى أن ينجده من واصل بن عطاء، متمتماً بدعاء حاقد:

اللهمّ ارمه بحجارة من سِجّيل، واجعلْ طعامَه ناراً، وشرابَه الزقُّوم، يقعد فلا يقوم. نهاره ليلٌ بهيم، وليلُهُ ليل الجحيم. خانَ العهدَ في عهدتك، وَصَاحَبَ الجنَّ والشياطين، اللهم خَلِّصْ مؤمنيك من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور النّاس.

يقف واصل بن عطاء ويصيح بالبصري: إنْ أنت إلاّ انتهازيّ

البصري: أنا عاشق

بن عطاء: أنا ذاهب

البصري: إلى العزلة

بن عطاء: إلى العالم

ثم خرج من المرقد، وغسل وجهَه بالمطر. تطلّع إلى «عليّ» وقال له اتبعْني لندفن المنسيين الذين لا أهل لهم!

قال «علي»: معي بدر

قال بن عطاء: هذه روح لا تموت. لقد حلّت عليها اللعنةُ، فتوزّعت نتفاً في الماء والنار والهواء، في الجماد والحيوان والإنسان.

بدر شاكر السيّاب يلوب تحت المطر، سيدفنه المطر إذا لم يحضر الدفّان، ولم يحضر الدفّان.

***

خيطٌ مائيّ مثل حدّ الموسى تسلّل إلى جثّة بدر، تململت. أراد بدر أن ينقلب على جنبه.. لماذا أدخلوه هذا الصندوق؟ آخ! تذكّر أنّه الآن ميت.. حرّر أصابعَه من الشاش الأبيض. أزاح لفافة الكفن عن رقبته. رائحة الكافور تكاد تخنقه. دفع غطاء التابوت. قاوم. دفعه بقوّة ثانية. صرّت المسامير.. دفعة أخرى. تفكّكت، انسلّتْ خيوطُ ضوءٍ إلى ظلام التابوت. نهض على كوعيه، ودفع الغطاء بصدره. قماش الخام ضيّقَ عليه أنفاسه. انفلش التابوت. أمامه شمخت قبورٌ من اسمنت وجصّ، شواهدُ من حجر ومرمر، وتوابيتُ من خشب معاكس مفتوحة، ومهملة: توابيت المنسيين استاف أنفُهُ رائحةَ الطين، والتفسّخ، والكافور. مزّقَ كفَنَهُ. شعر بإعياء شديد، وحين خطا خارج قبره لَزِمَتْهُ قُشعريرةٌ حادّة. المطر يحفر في جلده رجفاتٍ متواصلةً. لفّ عُرْيَه بالخام، لا بدّ له من الحصول على ملابس، وسيذهب إلى بيته. إنّه الآن ميت وستكف السلطات عن مطاردته. لو رآه أحدٌ واقفاً هكذا لظنّه جنّياً، أو مارداً قادماً من جهنّم، لذا يجب الإسراع في الابتعاد، وإلاّ فسيجبرونه على العودة إلى القبر، ويدفنونه لأنّه ميت، لامحالة. والموتى لا يقومون إلاّ يوم الحساب. إذن فهو يخالف نواميس اللّه. فكّر في فظاعة عودته إلى حفرة موته، سيحرمونه من رؤية غيلان وآلاء وإقبال. خطرتْ له فكرةٌ مباغتة، ومضةٌ شيطانية يحتال بها على اللّه والنّاس. هرع إلى التوابيت المفتوحة، سحب إحدى الجثث، وضعها في تابوته، ثم بسمر غطاءه مستخدماً كسراتِ شاهدةٍ مهدومة. ولكنْ أية مصيبة ستقع حين يبحلق الدفّان في التابوت الفارغ؟ سيُصاب بالجنون، أين يمكن أن ترحل الجثّة؟ هل يقوم منسيٌّ من الموت هكذا؟.. يقوم لينشّط ذاكرة العالم؟

(تبلّل الكفن تماماً. ازرقّ جلدُهُ من البرد. هرول مبتعداً عن المكان، ثم قعد تحت قفص أحد القبور المصفّحة بالحديد. ها هو «علي» مع الدفّان يقتربان من تابوته. سمعهما يتحدّثان:

الدفّان: عَلَيَّ أن أدفن الناس بالدور.

علي: صحيح، ولكنني مستعجل، يجب أن أذهب اليوم إلى الكويت.

الدفّان: لا أستطيع.

علي: سأدفع لك ما تريد.

الدفّان: إنا لله وإنّا إليه راجعون، من هو صاحبك هذا؟

علي: شاعر، مات بسبب مرض صعب.

الدفّان: سرطان؟

علي: لا.. شيء مثله..

الدفّان: الموت حقّ، يدرككم ولو كنتم في بروج مشيّدة.. ومادام صاحبك شاعراً فسأدفنه قبل المنسيين، قبلهم كلّهم.

علي: ألأنك تحب الشعراء؟

الدفّان: لا. لأنني أكرههم.

***

اضطُرّ بدر إلى قضاء ليلته، جالساً قرب القبر المقدّس، ملتحفاً كفَنَهُ، حذراً، منصتاً لكلّ حركة، محتاطاً لكل طارئ؛ فهو متأكّد من أنّهم إذا وجدوه سيعيدون دفنه، لذا فإن عليه أن يرتّب أموره. الحصول على الملابس أوّلاً والرحيل في أقرب فرصة ثانياً. يباغت حفّارَ القبور، ويقيّده، ويأخذ ملابسه، ولكنّ الحفّار غليظ، قوي. أيقول له إنّه خرج من القبر، وأنّه المرحوم بدر شاكر السيّاب؟ قد يقتله رعباً، أو يشلّه، ولكنْ أنّى لحفّار القبور أن يخاف الموتى؟ ما عليه إلاّ أن ينتظر رحمةَ اللّه. قبل أن يغفو للمرّة الثالثة، بعد منتصف الليل، من كابوس جاثم.

سمع همساً، ونسماتٍ بشريّةً تحفّ قرب جدار المرقد، غير أنّها مالبثت أنْ ذابت في الصمت. خرج بدر من المرقد، واختبأ وراء شاهدةِ قبرٍ عالية، ولبث يتنصّت.

– عبّاس! هل أنت متأكّد من مكان القبر؟

– لقد سألتُ الدفّان وقال لي إنّه قبره.

– وكيف عرف الدفان شخصيّة بدر؟

– لقد أخبره الرجلُ الذي أتى به.

– حسن...

راح الرجلان يحفران قبره بهمّة. تبيّن السيّابُ منهما «عباساً»، فيما لم يستطع معرفة الشخص الآخر. همس: الكلب عباس! ولكن ماذا سيفعلان بجثّته يا ترى؟ ماذا يريدان منه وهو ميت؟

أثارته شكوكُه، وهَمّ بالهجوم عليهما. ماداما يبحثان عن جثّته، فلا بدّ أن هناك مصلحةً مّا ملحّةً في موته.

فجأة لمح بدر شخصين مقنّعين، آخرين، يقتربان بحذر. كان الأوّلان منهمكيْن في الحفر، غيرَ منتبهيْن حينما انقضّ المقنّعان عليهما.

– قفْ.. هذا الوغد عبّاس!

هرب الآخر.. حاول عبّاس الهرب، ولكنّ أحدهما عاجَلَهُ بضربة مِعْوَلٍ على رأسه، فقتله.

صرخ المقنّع الآخر: ماذا فعلت يا عبد الجبّار؟

– قتلته.. لنكمل الحفر بسرعة، لربما سيبلّغ ذلك الوغدُ عنّا.

باشرا الحفر ثم أخرجا التابوت. كشفا عن الجثّة.

– هذا ليس «بدراً».

– دعني أنظر!

ينظر عبد الوهاب

– أنا متأكّد أنّها لميّت آخر.

– لقد أخطأنا القبر. اللعنة! فلننسحب...

دفنا تابوت المنسيِّ مع جثة القتيل كيفما اتفق. تراجعا، ثم غابا في العتمة.

***

نبش السيّابُ القبر، جرّد جثّةَ عبّاس من ملابسها، ولبسها، أعاد الجثّة إلى الحفرة، ثم طمرها من جديد.

قرّر أن يغادر محلّة الزبير، وجد بضعةَ دراهم في جيب البنطال، تكفيه فطوراً وأجرة ركوب. غادر المقبرة وتحاشى الشوارعَ الرئيسية، وخرج مباشرةً إلى محلّة العرب. تمهّل عند الجامع ثم ركب إحدى العربات الخشبية التي أقلّته إلى موقف السيّارات. كان الازدحام على أشدّه. عينان فاحمتان ذكّرتاه بأيام خوالٍ، وحوادث ووجوه كريهة. عينا امرأة تلتفّ بعباءة، تحدّق فيه، تلحّ في التحديق. حاول السيّاب تحاشيهما، ولكنّهما بقيتا ملتصقتين به، التصاقَ الطحالب بالحجر. هل لها علاقة بما حدث الليلة الماضية، وهل لها علاقة بعبّاس أو عبد الوهاب؟؟ إنها تدبّر شيئاً ما.. تتجسّس؟.. تبحث عنّي؟ تراقبني؟ تطاردني؟ سيحصل شيء ما! قد يختطفونني، أو يقتلونني في السيّارة! في عينيها شيءٌ من الغرابة والقساوة واللهفة والقلقِ تشفّ. رجع بدر أدراجه. تبعته حتى باب المقهى، ثم توارتْ في الزحام، وتوقفتْ قرب بائع الحبال، تنظر إليه. شرب شيئاً على عجل، وغادر من السيّاج الخلفي. عبر شجيرات الأثل، تسلّل إلى مستشفى الزبير، ثم إلى الشارع العام. التفت وراءه، لم يجدْها. غذّ السيرَ إلى الموقف الآخر: سيّارات «الزبير – الشعيبة»، ومن الشعيبة سيحاول الركوب إلى البصرة. وجد حسّاناً بانتظاره في الموقف، مع عبد الوهاب، وكأنّه على موعد مع موت ثانٍ مقيت. رجع، ولج أزقةً، ودروباً ضيّقة. كان يسمع وقع أقدامهما وراءه. هرول صوب جامع الزبير ثم انحدر إلى سوق الحبال، ثم سوق القمّاشين. وقف عند أحد القمّاشين، سأل عن سعر الخام الأسمر. ولج مكتبة، سأل عن ديوانه **شناشيل ابنة الجلبي**، قال له البائع: هذه مكتبة دينية لا تبيع كتبَ الملاحدة. أين سيذهب؟ سيقتلانه لا محالة. الاثنان صارا ثلاثة؛ فقد التحق بهم شخص ثالث. من هو؟ لم يستطع معرفته. شحذ ذاكرتَه جيّداً، أين التقى به؟ ومتى؟ في بيروت، لندن، الكويت، البصرة، بغداد؟ انزوى بدر في كازينو نادي الموظّفين. شرب ربعاً من العرق المستكي. أم كلثوم تئنّ في الحاكي، أثارت شجونه، طلب كأساً إضافية، وأخرى حتى آخر درهم..

حَلّ المساء، لم يقرّر شيئاً.. أيخبر الشرطة؟ سيلقون القبضَ عليه بتهمة القيام من الموت دون إذن، أو ربما بتهمة تعاطي السحر والشعر والتنجيم، ويعودون به إلى القبر، لأنّ ذلك «مخالف لسنة الله والرسل»، وهل هو المسيح حتى يقوم من موته؟ أم هو اليعازر ينهض من كفنه، أو الإمام الغائب يعود من غيبته؟ سيعود إلى المقبرة، وحينما ينتصف الليل سيأخذ قسطاً من الراحة، ثم يقطع الدرب مشياً إلى البصرة وأمره لله. ولكن ماذا إذا داهموه في المرقد؟ لفّته دوّامةُ الشكوك والمخاوف. لم يجد أفضل من أسوإ الحلول: العودة إلى الجبّانة. لكن ماذا يريدون منه، وهو ميت؟

***

استلقى على ظهره، وأغمض عينيه مستسلماً للصمت الزاحف على جدران القبّة الداخلية لمرقد الحسن البصريّ. بدر يذوب مع أنفاس الأوّلين، يخدر مع خشخشة أثواب داخلة، خارجة من المرقد، مع همس خطر، محاذر، مع عيون شفّافة، ووجوه برّاقة. أصابع، أصابع ناعمة راحتْ تلامس أصابع رجله، أخذت تجرّه. تشبّث بفسيلة ميّتة. تكمشه الأصابع، تسلخ جلد رجله، تجرّه إلى قاع نهر طيني. دخل الماءُ رئتيه، رفس الجسمَ الهلاميَّ المتشبّث به، وصعد إلى سطح الماء. كانت «جيكور» تحترق. أحدهم يئنّ من الألم، مصلوباً على باب سليمان. يَدٌ سحبته من الماء، وجد نفسه على سطح إحدى السفن، راياتها سود، وثمّة رأسٌ بشريّ معلّق على الصاري. سأل عن صاحب الرأس، قالوا له: إنّه رأس صاحب الزنج.. قال لهم: إنّه يريد أن يرى ابنَهُ غيلان. أنزلوه في قاربِ رسا عند نهر صغير: بُوَيْب. وجد أمّه تغسل رأس «وفيقة» بأوراق السدر، والشلبي يحدّق في حرائق «جيكور» ويستمني.

اقتربت أمّه منه وأعطته قنينة.

– أمّاه، أشربه، ستشفى!

ملاءات بيض، أروقة تغصّ برائحة الأدوية. دقّات ساعة. محمود العبطة يلبس ملابسَ ممرّضة لندنية، ماسحاً جبهته بحنو، يبكي عليه. عاهرٌ تقرأ «المومس العمياء» في ماخور السيف. جبرا إبراهيم جبرا يأخذه في جولة في المنصور ويسكر معه سكرة عظيمة. أبو سناء يوزّع المنشورات في «الصنكر». شرطي يدسّ في فمه مسدّساً، يخرجه ثم يمرّره على خدّه، يحسّ ببرودة الحديد، يقول له: اقتلهم أو اقتلك!

– لا أستطيع.

يطلق النّار في الهواء، فيقهقه «مالك سيف» لاوياً ذيله، عاوياً أمام النعساني. «إليوت» يبول في مكان كُتب عليه «البول للحمير». «لميعة عبّاس عمارة» تجلس وحدها في مقهى «البرازيلية»، يبحلق فيها، تقوم، تخرج إلى شارع الرشيد، يتبعها، تغيب في الزحام. نساء إيرانيات. شرطة كويتيون. أمراء يضاجعون بغالاً. غيلان يبكي عند «جسر الغربان».. بابا.. يمسّ خدّه، يقبّله.. بابا.. ماما.. أين ذهب بابا؟

مـــريض، مطارد، رجل يدوس في بطنه، أفـــواه، أفـــواه تصـــرخ عليـــه: «شعوبي، زنديق، ملحد، خائن، متخاذل ساقط، جاسوس، منشق، هارب، داعر، متواطئ، متعاون، وكيل أمن، وكيل مخابرات، نفعيّ، متقلّب، مساوم، ذاتيّ، أناني، معقّد، جاحد، قبيح، ضعيف، بكّاء، متآمر، متلوّن، منهار، مشبوه.. احذروا منه، حاربوه.. نقيق..».

أبلام، أعلام، شبابيك، شناشيل، مطر، سَحَر، قمر، صور، شجر، أصابع لزجة تجرّه من رجله، أصابع تقبض على عنقه، أصابع تنغرز في عينيه، أصابع تشدّ شفتيه، تطعن أنفه.. هواء.. هواء.. قليلاً من الهواء. أنا أموت. صوت من باطن القبّة: «ما غايتنا، ما غايتك؟ الموت حق والحياة زوال»..

– أريد أن أرى ابني غيلان! أريد أن أرى زوجتي إقبال ولو للحظة، لحظة كي أودّع أولادي، أتوسّل إليكم، كي أودّع «جيكور»، أودّع البصرة، العراق، الفرات، لحظة لن تغيّر في أمر اللّه، لن تغيّر في أمر العالم. من يسامحني؟ (شخير كلاب وقرع طبول)، ارحموني (دقّات ساعة المستشفى) اتركوني (بصقوا في فمه) انتم لماذا تعذبونني؟ حتى الظلام هناك أجمل «فهو يحتضن العراق»! آوّاه أيّها الظلام لُفّني، وخذني إلى غيلان.. إلى أهلي.. إلى البصرة، «أي حزن يبعث المطر؟».

الأصابع تكشف عن صدره. تدسّ سفوداً في صرّته، تلعق دمه، تبضع أضلاعه، وتحشو قلبه بالدود. تفصّد العرق من جبهته، استيقظ. وجوههم، عيونهم، أنوفهم، السنتهم، شعورهم، أظافرهم، تنهمر عليه. أراد أن يقول لهم: دعوني أمُتْ بسلام على الأقل! ولكنّه انقلب على جنبه، واستسلم لحلمه الأخير.

***

انقضّوا عليه، خنقوه بحبل سميك.

قال عبد الجبّار: هذا بدر!

قال عبد الوهاب: ولكن من ذاك الراقد في قبر السيّاب؟ لنحفر القبر كي نتأكّد دفعاً للالتباس!

حفرا من جديد، أخرجا التابوت، حطّماه، دهشا، احتارا، استغربا!!! وجدا جثّة أخرى للسيّاب أكل الدُود أطرافها. مَنْ هذا الراقد في التابوت، مَنْ ذاك الممدّد في المرقد؟؟ الجثّة أم القتيل المخنوق؟ سيّابان ميّتانْ. واحد ماكول، وآخر مخنوق. ربطا الجثّتين إحداهما إلى الأخرى، حملاهما في السيّارة، وغادرا المقبرة مسرعينْ.

بعد يومين جاءا إلى مشغل أحد النحّاتين، وقالا له: لقد انتهت المهمّة.

قال لهم: أين الجثّة؟

دفعا له الجثتين المربوطتين.

قال: كيف سأنحت التمثال، أيّةُ جثّة منهما تعود للشاعر؟

قالا: الاثنتان، انحتْهما بأية صورة، فهما مكتملتان هكذا، إنّهما لرجل واحد.

قال النحّات على مضض: حسن.. ثم غمس الجثّتين في قالب جبسي، وطهّر مشغله بالديتول.

***

كما تجمّع المريدون تحت صليب الحلاّج

كما تجمّع جند الروم على الجلجلة محدّقين في القيامة

كما تجمّعت الغربان على رأس سبارتاكوس المصلوب، تنقر عينيْه،

تجمّعوا حول التمثال

مثلما اعتلت زينبُ صهوةَ جواد الحسين لترمي بالحق يزيداً

مثلما تشبّثت مريم بالصليب، وهزّته

مثلما صعدت جان دارك المحرقةَ بعيني زائغتين،

تسلّقت امرأةٌ التمثالَ.

كما أكلت السباع والوحوش جثّةَ المتنبي في دير العاقول

كما التهمت نيرانُ الفرن جسد ابن المقفّع

كما اكتسحت سيولُ نهر خوز وشط العرب أسوارَ مختارة زنج البصرة،

قرض الغبارُ والصدأ المخضرُّ والضجرُ والوحدةُ معدنَ التمثال.

... امرأة متّشحة بالسواد تسلّقت التمثال، وراحت تغسله، وتنظّفه بالماء والصابون، يساعدها شابٌ نحيف وفتاة نحيفة.. تجمّع السابلة والفضوليون ورجالُ الأمن والشرطة والصيّادون والشحّاذون والحمّالون حولهم مندهشين، أو ساخرين، أو آسفين، أو غير مكترثين.

قال أعرابي مستفسراً: من هذه المرأة، تغسل الصنم هذا؟

ردّ رجل يبيع الكوكاكولا في سطل معبّإ بالثلج: إنّها زوجة السيّاب: إقبال، تغسل تمثاله من الغبار والصدإ وفضلات الطيور. كوكا كولا بردّ قلبك، أفتح لك واحدة؟

لوى الأعرابي شفتيه ومضى يخبّ، قاصداً سوق الهنود، يضرب علبةَ دخّان «روثمن» فارغة، بطرف نعله الزبيري، كشيطان يدخل المدينة لامبالياً.

السويد